# أبناء هدم..؟

*انتفخت* بطن الحارة بأطفالها ، حتى أصبحت وكأنها في أيامها الأخيرة قبل الولادة ..
خرجوا بعد أن لفظتهم بيوتهم ..
صاروا كأسراب نمل فرادى وجماعات ، من بعد بياتهم الشتوي ، وجدتني أحدث نفسي هامساً :
- هلت بشائر الإجازة الصيفية ..
رحت أراقبهم كشيخ لا يقدر على فعل شيء سوى قراءة الجرائد، ومتابعة نشرات الأخبار ، والنوم بخاصةً في ساعة العصاري ، ومراقبة المارة وقتاً طويلاً من وقت لآخر من خلال هذه الشرفة الضيقة.. الضيقة جداً تماماً كعلبة السردين، والتي لم تكن تسع إلا لاثنين.. زوجتي التي رحلت وأنا ، فماذا عساي أن أفعل بعد أن أفرج عنى ، وخرجت من سجن عمري الطويل، بعد أن قررت حكومتي الإفراج عنى نهائياً بضمان محل إقامتي ، بعد أن وصلت إلى سن التقاعد ..
آه ه ه ه ه
ترميني زوجتي بابتسامة ساخرة من خلف بروازها الخشبي المتهالك ، تبسمت أنا الآخر ابتسامة لا لون لها ولا طعم ، ثم وجدتني أقول في انكسار أبدى :
- هذا هو حال حكومتنا يا ست الستات ، يأخذوننا لحماً طريا ، وهِمَماً قوية ، ويرموننا عظاماً نخره ، تماماً بعد عصرنا كعود القصب ..

**( ربنا يجعل يومي قبل يومك .. قادر يا كريم )**
**علمت الآن .. الآن فقط لماذا كانت زوجتي تدعو ربها جَلَّ جلاله دوماً بهذا الدعاء _ تحديداً_ كلما وجدتني مهموماً ، لقد كانت قارئة جيدة لي وللأيام ، لقد فضلت أن تموت قبلي ؛ حتى لا تراني على هذا الحال ، تمنت موتها قبلي حتى لا تراني وحيداً ضعيفاً لا أقدر على فعل شيء ، بعدما كنت كل شيء تقريباً ، لا أدرى كيف ينقلب الحال هكذا فجأة من حال إلى حال ..؟!! من مدير يقود صفاً طويلاً من الموظفين والموظفات ، إلى شيخ ضعيف متهالك ، تحركه الأيام بريموتها اليومي .**
**أكنت تتوقع هذا يا أنا ..؟!!**
**أحقاً كنت تتوقع هذا ..؟!**
**هكذا وجدتني أصرخ في ذاتي المنهكة باحثاً عن إجابة ..**
**وهل تنفع أو تشفع أو تغنى من جوع تلك الإجابة ..؟!!**
**بيد ترتعش أمسكت كوب الشاي الخالي تماماً من السكر ، بعد أن أجبرت من قِبل الأطباء..الذين أقروا على أنى لا بد أن أشرب ..أن آكل ..أن أتنفس ..أن.. وأن.. وأن.. وأن دون سكر ..**
**(حتى ولو ملعقة صغيرة.. صغيرة جداً للتحلية يا دكتور؟!)**
**( إني أحذرك .. فجسدك لم يعد يتحمل أية مضاعفات )**
**هكذا كان سؤالي معترضاً وبشدة على ملح أيامي ، وهكذا كانت إجابة آخر الأطباء .**
**رحت أرتشف من كوب الشاي ، وعيناى تراقبان أطفال الحارة الذين افترشوا أرضها ، فمنهم من راح يلعب (القطة العمياء)، ومنهم من يلعب بالكرة ، ومنهم من راح يلعب ( البلى ) ومنهم من راح يلعب (**

الحجلة ) .. وهناك من راح يلعب ( السيجة ) .. ألعاب جميلة وفقيرة لم تكلفهم شيئاً ، وجدتني أتبسم متذكراً الزمن الجميل ، وأصدقائي الذين تفرقوا من بعد جمع بسبب خلافاتنا المستمرة ، وجدتني أقبّل البسمة أو الضحكة المرتسمة على وجوه وشفاه أطفال الحارة، متمنياً أن تعود إليَّ قوتي الضائعة ، وعمري الضائع ، وأنزل إليهم ، ألعب معهم كي أنسى مرارة أيامي ، تلك المرارة التي أتجرعها صباح مساء ، قبل وبعد الأكل .

- هاء ..

- هاء ..

- هاء ..

جذبتني ضحكات الأطفال الصافية الخارجة من أعماق ..

أعماق قلوبهم ، تلك الضحكات الساخرة التي أطلقوها

على زميلهم الذي عصب عينيه بشريط طويل من القماش

حالك السواد ، بعد أن وقع عليه الاختيار ؛ ليكون القطة العمياء، فكلما اعتقد أنه قد أمسك بأحدهم ، سرعان ما تأكد له أنه قد أمسك الهواء ، وهم لم ولن يرحموه ضرباً على قفاه ، أو شد شعره ، أو قرصه في ركبتيه أو شد أذنيه ، أو إنزال بنطاله بعض الشيء ، المهم عندهم إيلامه والضحك عليه دائماً، وهو لا حول له ولا قوة ، مازال يتحرك يمنة ويسرة تارة ، وتارة أخرى يتقدم للأمام وإلى الخلف، وكله أمل وصبر في الإمساك بأحدهم ، شيء ما جعلني أنجذب إلى هؤلاء الأطفال ، وتحديداً هذا الطفل معصوب العينين ، والذي راح يسقط على الأرض من وقت لآخر ، وددت لو أنى أستطيع النزول ، وأمسك له بأحدهم حتى يصبح مكانه ، ويذوق ما ذاقه من

**مرارة الضرب والإهانة ، ولكن كيف لي هذا ..؟!! وجدتني أصرخ بكل ما أوتيت من قوة :**

**- هناك عن يمينك،وثانٍ أمامك تماماً**

**و.....و.....**

**بح صوتي تماماً ، دون جدوى ، فهو لم يسمعني .**

**فتحت جريدة الصباح ..**

**هتك ..**

**قتل ..**

**دمار ..**

**بيع ..**

**عناوين بارزة باللون الأسود تتصدر الجريدة ..**

**غاضباً وجدتني أرمى بها جانباً ..**

**غاضباً أمسكت بريموت التلفاز _ الذي ظل يناديني من وقت لآخر في صمت _ وجهته نحو التلفاز ، الذي استيقظ على الفور من ركود نومه الطويل ..**

**تخرج علىَّ مذيعة نشرة الأخبار ؛ لتعلن في أسى وحزن دفين عن فشل محاولة لم الشمل بين بعض الدول العربية**

**تصيبني خيبة الأمل ..**

**أبدل القناة ..**

**امرأة عجوز تتشبث بآخر ما تبقى لها في أرضها ،**

**تحتضن وبقوة شجرة الزيتون كوليدها ، تغسل وجهها**

**دموعها التي لم تتوقف قط ..**

**أبدل القناة ..**

طفل صغير .. صغير جداً يبلغ طوله كعقلة إصبع ، تحمله قدماه في صلابة ، يقف مرفوع الرأس ، يمسك في كفه الأيمن حجراً ، وفى الأخرى صورة جماعية لأبويه وإخوته الثلاثة الذين تهدم عليهم بيت العائلة ؛ من جراء قصف ليلى من عدو غاشم ، يقف في وجه إحدى الدبابات _ التي وجهت فوهتها نحوه _ دون خوف أو فزع ..

أبدل القناة ..

شيخ يعتلى المنبر ، لحيته قد ابتلت بدموعه ، ويجلس متربعاً على وجهه حلاوة الإيمان .. كل الإيمان ، يصرخ باكياً في وجهي ووجوه الحاضرين الملتفين من حوله :

- ( وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم )

أشعر بشدة ضعفي ..أغلق شاشة التلفاز ..

أضع الريموت جانباً ، لينام في هدوء على ظهره ..

أعود وأحدق مرة ثانية في وجوه أطفال الحارة ، عجباً ما هذا ..؟!! لقد توقف كل أطفال الحارة وتوقفت معهم ألعابهم ، والتفوا جميعاً حول طفلين قد جلسا فى منتصف الشارع ، يصنعان بيتاً خشبياً جميلاً بديع المنظر ، معهم حق ، إنه يستحق التقدير والتفافهم جميعاً من حوله .

وجدتني منجذباً لما يفعله الطفلان ..

أتناسى ولأول مرة آلامي ..

وجدتني أنتفض ، وسرعان ما راحت تتحرك يداي وحواسي معهم خطوة .. خطوة لما يفعلانه ..

**رحت أسترق السمع لأحدهما ، وهو يقول للآخَر في ثقة زائدة:**
**- ضع مسماراً هنا ..**
**- حاضر ..**
**- احمل معي السقف ..**
**- حاضر ..**
**كل النوافذ المغلقة قد فتحت أفواهها على اتساعها ، خرجت منها رؤوس نساء ورجال ، راحوا يحدقون في سعادة غامرة فيما يرونه لأول مرة ، وما يصنعه الطفلان في قوة وصلابة وتعاون وتحد ملحوظ ..**
**الشارع قد امْتُلِئ عن آخره برؤوس الأشهاد التي راحت تتزاحم ؛ من أجل رؤية ذلك المشهد البديع في صمت .**
**- أنت أخطأت ..**
**- لا .. بل أنت المخطئ ..**
**- أنت ..**
**- بل أنت ..**
**- أنت لا تفهم شيئاً..**
**- احتر منى فأنا أكبر منك بل وأقدر منك على الفهم ..**
**- عليك أن تعتذر لي على الملأ ؛ حتى نكمل ما قد بدأناه**
**- أنا لم أخطئ، ولم أتعود الخطأ حتى أعتذر لك أو لغيرك**
**- سوف يقتلك غرورك وكبرياؤك ..**
**- احترم نفسك وإلا هدمت ما صنعته ..**
**- بل أنا الذي سأهدمه فوق رأسك ..**
**فجأة ..**

ارتفعت أياديهما معاً، وراحت تتسابق في هدم ما قد شيداه جن جنوني ..
كدت أن أقتلع ما تبقى في رأسي من شعرات قليلة بيضاء من هول ما أراه وأسمعه ..
آه ه ه ه ه ه ..
وجدتني أردد :
- لقد هدموا البيت .. لقد هدموا البيت ..
أضرب رأسي ..
رحت أهذى بكلمات كمجذوب حارتنا:
فشل دائم ..
كره دائم ..
تفرق دائم ..
دخلت الرؤوس جميعاً ، بعد أن أغلقت النوافذ ، وكانت آخرها نافذة جارتي الست " أمل " تلك المرأة العجوز التي لم تفقد الأمل قط في عودة ولديها اللذين سافرا سوياً إلى إحدى الدول العربية منذ سنوات طويلة ، ومنذ سفرهما وهى تطلب منهما العودة إلى حضنها ، وفى كل مرة يأتي جوابهما معاً عبر خطاباتهما أو اتصالهما التليفوني ( عندما يعود أخي أعود أنا )
وتفرق الجمع من بعد توحد ..
وسلك الطفل " فتحي" في اتجاه معاكس تماماً لـ "حمادة "
ومازلت أحدق في بقايا هيكل البيت الذي تهدم ، ذلك البيت الذي يشبه تماماً وإلى حد كبير المسجد الأقصى أو هكذا خُيِّل إلىَّ